

دراسات الأدب المعاصر، السنة العاشرة، صيف ١٣٩٧، العدد الثامن والثلاثون: ص ٩١-١٠٦

العنف الثورى والنفحة الجماهيرية الشعبية فى شعر محمد مهدي الجواهرى

فرزانه اسماعيلى *

تاريخ الوصول: ٩٦/١٢/١٦

رحيم انصارى پور **

تاريخ القبول: ٩٧/٢/١٢

صديقه سادات مقدارى ***

الملخص

تناولت هذه الدراسة العنف الثورى والنفحة الجماهيرية الشعبية فى شعر محمد مهدي الجواهرى الذى عاش فى زمن مخاض الحوادث والتطورات السياسية التى مرت على العراق بدء من ثورة العشرين وانتهاءً بحزب البعث، فالعنف الثورى فى شعر الجواهرى يعود إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التى تمتاز بها شخصية الجواهرى. فعنف الجواهرى ليس بالعنف الذى يوحى بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه ضرورة الموقف والزمن وهو عنف قد جاء بمثابة رد فعل طبيعى لواقعٍ مر. إنَّ وظيفة الجواهرى بالنسبة للجماهير تكون مضاعفة فهو فضلاً عن اشتراكه مع الجماهير فى ايجاد الحدث فإنه يرى نفسه مسؤولاً عن حفظ ذلك الحدث بقصائده وأشعاره لذلك كانت أشعاره كالماء والهواء يتلقاها الناس بحرارة وينشدونها حباً. وبحكم العلاقة الوطيدة بين الجواهرى وبقية الجماهير فالشعبية كانت من مضامين شعر الجواهرى، فلا يغيب عن أى قضية تحف الشعب دون أن يلتفت إليها أو يشير بها أو يدافع عنها. فالجواهرى وإن كان مغترباً لم ينسى شعبه وهمومهم ومعاناتهم.

الكلمات الدليلية: العنف الثورى، الشعب، الشعر، الجماهير الأدب العراقى، الإغتراب.

* ماجستير فى اللغة العربية وآدابها، إيلام، ايران.

** أستاذ مساعد فى جامعة آزاد الاسلامية، إيلام، ايران.

*** أستاذة مساعدة فى قسم اللغويات العامة، جامعة پیام نور، قاين.

الكاتب المسئول: رحيم انصارى پور

المقدمة

تناولت هذه الدراسة العنف الثوري والنفحة الجماهيرية الشعبية في شعر محمد مهدي *الجواهري*. الذي عاش في زمن مخاض الحوادث والتطورات السياسية التي مرت على العراق. يكفي أن تنظر وتتأمل في القصائد الجواهريية والتي أنشدها عبر قرن كامل لتجد أن *الجواهري* قد سلك طريقاً شعرياً تمحور فيه على أسس عموده الوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر، والوطن عبارة عن وحدات متراصفة فوق أخرى، لتبدأ من الأهل، المجتمع، الأرض بسهوله ووديانه وجباله وصحرائه، لم يتوقف *الجواهري* في حدود وطنه بل كان يرى وطنه إمتداد الوطن أكبر وأن هموم هذا الوطن هي هموم الأمة فسعادة شعبه هي من سعادة أمته ومحنة شعبه هي محنة أمته، وإذا كان الإستعمار الإنجليزي قد نهش لسنين طويلة جسد العراق، فسورية ومصر والجزائر قد إبتلت وجرحت من حرب الإستعمار الفرنسي وإذا كانت الحكومات الرجعية قد تسلطت على رقاب الشعب العراقي قرابة خمسين عاماً فالأمر كذلك في بقية بقاع العالم العربي إذن فالمصيبة *للجواهري* نفسها والهم واحد لا فكاك.

فعلى المستوى الوطني كان *الجواهري* وطنياً غيوراً مدافع عن استقلال بلده وحرية بوجه الطامعين المستعمرين. وكيف يكون *الجواهري* غير ذلك وهو سليل عائلة عراقية وعربية مناضلة اشتهرت بوطنيتها ومواقفها الكفاحية المعروفة جيداً في النجف وفي عموم العراق، فوالده كان من الوطنيين الأحرار الذين قاموا بالإستعمار البريطاني، أما أخوه جعفر فقد قضى شهيداً وهو في ريعان الشباب دفاعاً عن الوطن وحرية لقد توسع الفكر الأدبي والسياسي *للجواهري* في رقعة الوطنية والقومية لتأخذ أبعاداً أكثر شمولية تضرب في العمق الإنساني، أينما كان ويمجد الشواخص الإنسانية بتفاصيلها ومفرداتها أحداثاً وشخصيات وقضايا.

فترى في شعره إماماً مطرداً لما يدور حول الأدب العربي وساحاته و*الجواهري* يتمتع بفكر رحب وخيال نافذ والتزام بقضايا الإنسان لقد كتب وأنشد لشخصيات عالمية وأرخ بشعره لأحداث مصيرية مرت على القرن العشرين.

فالعنف الثوري في شعر *الجواهري* يعود إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التي تمتاز بها شخصيته. فعنف *الجواهري* ليس بالعنف الذي يوحى بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه

ضرورة الموقف. فالشعبية كانت من مضامين شعر الجواهري، فلا يغيب عن أى قضية تحف الشعب دون أن يلتفت إليها أو يشير بها أو يدافع عنها.

منهج البحث

اتبع الباحث المنهج الوصفي- التحليلي لما يمتاز به من قدرة على وصف الظاهرة الأدبية وإظهار الخصائص الأدبية من فكرية وفنية وجمالية للشعر وفق دراسة تحليلية، فهو أنسب المناهج والملائم لدراسة العنف الثوري و النفحة الجماهيرية الشعبية فى شعر محمد مهدي الجواهري.

خلفية البحث

وأما عن الجهود السابقة فى هذا المضمار، فإننى أرى أننا عندما نبحث فى موضوع ما، فإن جهودنا- بلا شك- ستكون تكملة لجهود غيرنا، وقد كتب الكثيرون من قبلنا عن العنف الثوري والنفحة الجماهيرية الشعبية، وعن الشعراء الذين عالجوا القضية واهتموا بها وأيضا عن محمد مهدي الجواهري وأشعاره واهتمامه ومساندته السياسية والأدبية فى العنف الثوري، ومن البحوث التى درست موضوع فلسطين فى شعر الجواهري هي:

اعتمادى، م. ١٣٨٧ش، «الجواهري حياته، اسلوبه الشعري وخلفيته الثقافية»، ايلام: جامعة آزاد الاسلامية

العلوية. ١٩٦٩م، «محمد مهدي الجواهري»، دراسات نقدية: بغداد

الفتلاوى، ك.ع. ١٩٩٩م، «المنتخب من أعلام الفكر والأدب»، بيروت: مؤسسة المواهب، الطبعة الأولى

جمعة، حسين. ٢٠٠٩م، «ملامح فى الأدب المقاوم؛ فلسطين أنموذج»، دمشق: وزارة

الثقافة

وحور، محمد. ١٩٩٨م، «فلسطين فى شعر الجواهري»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وأما بحثنا هذا فهو أيضا يدرس العنف الثوري والنفحة الجماهيرية الشعبية فى شعر محمد مهدي الجواهري عن طريق تحليل النماذج الشعرية وتختلف عن الدراسات المذكورة من حيث الشكل والتحليل وجدير ستفدنا من البحوث المذكورة فى بحثنا هذا.

مولده و نشأته ومدفنه

أبوفرات محمد مهدي بن الشيخ عبدالحسين بن الشيخ عبدعلى بن الشيخ محمد حسن صاحب «جواهر الكلام»، أشهر مشاهير الشعراء فى العصر الحاضر إنتهت إليه إمارة الشعر بلا منازع. تختلف الروايات فى التقدير الدقيق لتاريخ ولادة الجواهرى، ومدار هذا الإختلاف بضع سنين؛ ولد الجواهرى عام ١٩٠٣م بمدينة النجف الاشرف أو عام ١٩٠١م والأول هم الأصح، ومما قيل أنه ولد عام ١٨٩٩م أو ١٩٠٠م، ويبدو أن منشأ هذه التقديرات يعود إلى عدم تصريح الجواهرى نفسه بالتاريخ الدقيق لولادته، ولكن الشيخ جعفر محبوبة مؤلف كتاب «ماضى النجف وحاضرها» والذى يقول الجواهرى عنه بأنه «صادق وثقة وكتابه قيم»، يقول أن الجواهرى ولد ليلة السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٣١٧ق. فيجيب الجواهرى بالإيجاب على أساس أن هذا التاريخ قد يرقى به بعد إلى ما بعد عام ١٩٠٠م ومن الممكن إرجاع سبب الاختلاف إلى عملية تطبيق التاريخ الهجرى على الميلادى وقواعد التحويل.

ولما كان الجواهرى قد أيد التاريخ الذى أثبتته جعفر محبوبة أى عام ١٣١٧ق فقد قال الدكتور على جواد طاهر: «وكان الذى شجعه على الإستمرار فى التأييد جهلة الفرق بين السنة الميلادية والهجرية، وتصوره أن هذا التاريخ يرقى به إلى ما بعد عام ١٩٠٠م»، ونرجع إلى قواعد تحويل الهجرى إلى الميلادى وإلى الجداول العلمية المعترف بها فيظهر أنه ولد يوم الأربعاء السادس والعشرين من تموز ١٨٩٩م، ويبدو أن هذا هو التاريخ الصحيح لما هو معروف من صدق محبوبة وتثبته وصلته بأل الجواهرى ولصيغة تاريخ الولادة حتى لكأنه استقاها من أوثق المصادر.

قال الجواهرى: «ولدت مع مولد هذا القرن المضطرب، كان البيت الذى وُلدت فيه ونشأت بقرب الصحن العلوى، ولذلك تفتحت أول ما تفتحت على هذه الفسيفساء الآدمية العجيبة، المتداخلة، المتعارضة، التى يضمها الصحن والحضرة والسور المرمرى الذى يحيطها» (الجواهرى، ١٩٩٨م، ج ١: ٣٥).

ولد محمد مهدي الجواهرى فى السنين الأولى من القرن العشرين من أسرة دينية؛ كان جده الأعلى الشيخ محمد حسن مرجع شيعة الإمامية فيعهده وكتابه المشهور «جواهر الكلام» الذى اقتبست الأسرة لقبها منه (العلوى، ١٩٦٩م: ١٩). طلع

الجواهرى على القرن العشرين من بيت أسواره الدين والمذهب، وأعمدته العلم والثقافة والأدب ومن مدينة بيئتها الدين وظواهرها التحفظ والالتزام ومحيطها بحار من كتب الاستدلال والجدل والفلسفة والأحكام ورجالها علماء، فقها، مراجع التقليد، شعراء وأدباء، ومن بلد تتكالب عليه القوى الإستعمارية .

إرتشف محمد مهدي مناهل الأدب واللغة والفلسفة، فدرس «الأجرومية» و«قطر الندى» و«ألفية ابن مالك» و«مغنى اللبيب» و«شرح النظام فى الصرف» و«الحاشية للملا عبد الله» و«شروح الشمسية فى المنطق» و«المطول والمختصر فى البلاغة» و«شرح اللمعة» و«مكاسب الشيخ الأنصارى» (الجبورى، ١٩٩٣م: ١٠).

نشأ الجواهرى على والده العالم الأديب، قرأ مقدماته الأولية على أخيه عبد العزيز والشيخ على الشرقى. الحساب على السيد أبى القاسم الخوانسارى والبيان والمعانى على الشيخ مهدي ظالمى والشيخ على تامر وحفظ الفقه وأصوله على سيد موسى الجصانى والسيد حسين الحمامى (الفتلاوى، ١٩٩٩م: ٦١٣). هذا كله وهو لم يشدد عوده بعد بل لا يزال فى الخطوة الأولى لعبور العقد الأول من عمره. أما لطفولة الجواهرى فله معها شأن، فقد عاش طفولة يلعب فيها دور الكبار صغير فى قالب الكبير، صبي يطلب منه أن يدع الصباية والطفولة ويعيش عالم الخبراء الكبار، أليس فى الأمر مغامرة حقاً! نشأ فى كنف والده الفقيه والأديب الذى لازم ابنة ملازمة خاصة وعنى به عناية الأب والأساتذ والمرشد، ولن يفارقه حتى وافاه الأجل عام ١٩١٧هـ.

والظاهر أن الالتزام الغير طبيعى من الشيخ عبد الحسين لابنه مهدي إن دلّ على شىء، فإنما يدل على التشخيص الدقيق لنبوغ الجواهرى والاهتمام البالغ بمستقبله وهو صبي وحسب. والحق أن الشيخ لم يكن متوهماً أبداً فى هذا وإن كان أمله فى ابنه غير ما آل إليه محمد مهدي الجواهرى. قال الجواهرى: «بعد وفاة والدى إنفردت بشخصى و تفردت بشخصيتى، مثلما ينبغى لكل مخلوق قبل ذلك كنت مجرد ظل له ولوصايته المحكمة على» (الجواهرى، ١٩٩٨م، ج ١: ١٥).

لقد دفع الجواهرى ثمناً باهضاً لطفولته تلك كما قال: «وقد أتعبتنى السنوات العشر الأولى منها أكثر من العشرات العشرات التى تلتها، فإليها تعود العقد، والرواسب، واختلاط الحسنة بالسيئات اختلاطاً يصعب علىّ وأنا صاحبه أن أجد له مبرراً غير أن أعود

القهقري إلى هذه المرحلة، التي حكمت كل حياتي التالية وغالباً ما كانت ذكرياتي عن الفترة مديرة وكثيراً ما اختلطت هذه المرارة بالسخرية» (المصدر السابق: ٣٩).
درس *الجواهري* في المدرسة العلوية في مسقط رأسه، ثم أخذ علومه في اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثامر وغيرهم من مشايخ الغري، ونبغ في الشعر قبل أن يبلغ الحلم (بصرى، بدون تاريخ: ١٨٠).

الشاب الثوري

إذا كان *الجواهري* قد خسر طفولته ودفع ثمناً غالياً لمرارة أيام حملته واقعاً خاصاً، كان طبيعياً أن يسود روحه طابعاً متمرداً يجره نحو التطرف بين الحين والآخر، والأمر من ذلك أن هذا الطابع المتمرد قد سكن كيانه ولازمه حتى خارج مراحل شبابه بل في عمره كله.

وهو القائل: «إنني أعيش مرارة تلك الأيام حتى الآن، وكانت السبب في كل هفواتي وسقطاتي اللاحقة بدافع طموحات لم أخلق لها» (الجواهري، ١٩٩٨م، ج ١: ٤٩).
كان والده الشيخ عبدالحسين *الجواهري* حريصاً جداً على متابعة ابنه مهدي لدروسه وحضوره معه، وإستصحابه إلى مجالس العلماء الكبار، ليدفعه دفعاً عجولاً نحو عالم الشيوخ وفي هذا المجال يقول *الجواهري*: «كانت سنوات حياتي، خلال ذلك تختصر قسراً إلى شهور، بل أسابيع وقد حملت إلى سنوات حياتي اللاحقة، تبعت كل تلك الفترة التي سرقت مني، حملتها بكل تناقضاتها ومفارقاتها حيث انعكست على حياتي وشعري بل وعلى تعاملتي مع الناس ومن معي، دائماً كان هذا الطفل الذي انتزعت منه طفولته يخرج من جديد بشكل ما مشاكساً عنيداً غافلاً متغفلاً متناقضاً مبليلاً، وكان الطفل يفلت حالماً ينتهي من امتحاناته اليومية الرهيبة ليخرج وقد أطلق سراحه إلى الزقاق في وقت متأخر من النهار يكون فيه الأطفال قد شعبوا لعباً وعادوا أو أوشكوا أن يعودوا إلى بيوتهم» (الجواهري، ١٩٩٨م، ج ١: ١٤).

ويبدو أن هذا الإجحافات أو الخيبة التي كان يراها *الجواهري* في التعامل القسري، بالنسبة له قد أدت به إلى نمو نزعة التمرد والتناقض لديه في سنين شبابه، ومن ثم في بقية عهود حياته. ولم يكن *الجواهري* بالذي يرضى بطفولة كطفولته، ولا بصبوة

كصبوبة مما دفعه بالتالى فى عنفوان شبابه النزوع نحو الخلاص من هذه القيود، وهذه الزنانات التى تهضم حقوقه فى الطفولة والشباب، ليصل إلى عهد يصف فيه نفسه وعمامته التى ألبسوه بها: «حتى لكأننى أصبحت. ابن جلا وطلاع الثنايا»، والمقصود "بابن جلا وطلاع الثنايا" الحجاج بن يوسف الثقفى والى الكوفة.

لقد رأى الجواهرى التمرد لنفسه طريقاً وسلوكاً لم يكن بإمكانه الخلاص منه، وإن كان يريد ذلك لقد عاش كبيراً وهو صبي، وعاش حياة الصغار وهو شيخ كبير تجاوز الثمانين، وهذه المفارقات وسمات التناقض الذى كان يملاً حياته. وقد قال: «عشت حياة عاصفة، اختلطت فيها عوالم بعوالم، الفقه بالشعر، والشعر بالسياسة، والسياسة بالصحافة والصحافة بالحب والحب بالصدقات والبؤس بالنعيم والتوطن بالترحل بالطفولة بالرجولة» (الجواهرى، ١٩٩٨م، ج ١: ١٤).

لقد أريد للرجل أن يجعل فقيهاً نابهاً يعيد المجد الغابر (لصاحب الجواهر)، لكنه بمجرد التنفيس، ليعلن التمرد على كل الواقع المؤذى لطبعه وكيانه، لذلك لم يحقق أمل والده فى التمرس بالفقاهة وتطرف فى هذا تطرفاً عنياً وثار ثورته الكبرى على التزمته الذى كان يمقته فى محيطه، وأودع العمامة جانباً وخرج أفندياً متطرفاً يحمل بهجومه ليحتل المواقع واحد بعد الآخر ويمسك بزمام الأوضاع فى محيطه الثورى الجديد، الذى أستطاع أن يخلق لنفسه معتقداً أن أيام القفص الحديدى قد ولى دون رجعة وعليه بنا قفصاً ذهبياً يفتقد ببابه سجان لا يزهد بمفتاح قفصه وجاءت طلقاته قوية وقاتلة فى قصائد «جربيني» و«الرجعيون» لتجر بعدها طلقات أقوى وأخطر. ولنقرأ له أين أودع العمامة وبهذه السرعة الخاطفة إذ قال فى قصيدة «الزعة»:

قال لى صاحبى الظريف وفى الكف
ف ارتعاش وفى اللسان إنحباسه
أين غادرت عمه واحتفاظاً
قلت: إنى طرحتها فى الكناسة
صاحبى لا ترعك خسة دهر
كم نفوس شريفة حساسة

(الجواهرى، ١٩٨٦م: ٨١)

ويفتح الجواهرى صفحات التحدى بمسارات عديدة تتراوح بالإفراط والتطرف فى مراحل، وبالرجوع والعودة إلى التراث البيئى مراحل أخرى. يبدو أن الجواهرى فى عهود تطرفه وإفراطه الساخر بكل شىء. أوضع ما يقال لوصف الحالة هو أنه أدرج ثورته وتمرده

على واقعه بالتحرك من التحفظ إلى التحرر، أو بالأحرى التحرك من مسار أقصى اليمين نحو أقصى اليسار.

وفاته ومدفنه

فى يوم الأحد ١٩٩٧/٧/٢٧م رحل محمد مهدي الجواهري الذي وافته المنية عن عمر بلغ ثمانية وتسعين عاماً بدمشق العاصمة السورية بعد عشرين عاماً من الإقامة فيها، وقد شيعت دمشق جثمانه بانطلاق مسيرة ضخمة، تقدمها نائب الرئيس السوري ممثلاً عن الرئيس حافظ الأسد ورئيس مجلس الوزراء عبد القادر قدورة وعائلة الفقيد وشخصيات سياسية وثقافية وجمهرة غفيرة من العراقيين المنفيين، وقد إخرقت المسيرة شوارع دمشق فى طريقها إلى مقبرة الغرباء فى حى السيدة زينب(ع) حيث ترقد زوجته أم كفاح(جريدة الاتحاد، ٢٠٠٠م، العدد ٩٤).

العنف الثورى فى شعر محمد مهدي الجواهري

يعود العنف فى شعر الجواهري إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التى تمتاز بها شخصية الجواهري، والشئ الذى يلفت الانتباه إليه فى عنف الجواهري، هو أن عنفه ليس بالعنف الذى يوحى بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه ضرورة الموقف والزمن، وهو عنف قد جاء بمثابة رد فعل طبيعى لواقع مر، فالعنف عنف لا فرق لدى الجواهري سواء كانت القضية صغيرة أو كبيرة، يكفى أن يرفض أن يثور، أن يغضب، فتأتى القافية العنيفة لتعالج الموقف مدحة كان أم رثاءً وصفاً كان أم غزلاً، شكاية كانت أم عتاب.

عدا على كما يستكلب الذيب

خلق ببغداد أنماط أعاجيب

خلق ببغداد منفوخ ومطرح

(الجواهري، ١٩٧٢م، ج٤: ١٥٩)

ويحدث أن يحول الشاعر عنفه الشديد إلى استهزاء وسخرية ذات طابع اجتماعى يهز بعنفه هذا كيانيين السلطة المتجبرة والجماهير من النوع الذى تطلب الراحة وتؤنس مع الظلم حين يقول:

حرسك ألهة الطعام

نامى جياع الشعب نامى

نامى فأن لم تشبى
من يقظة فمن المنام
نامى على زبد الوعود
يداف فى عسل الكلام
(الجواهري، ١٩٧٢م، ج٤: ٧٣)

ونرجع إلى عهد الثلاثينيات وأول إنقلاب عسكري عراقى وهو إنقلاب بكر صدقى
١٩٣٦م حيث انبرى الجواهري ليدعو قيادة الانقلاب إلى العنف الثورى على المتلعبين
بالشعب حينما يصرخ:

أقدم فأنت على الأقدام منطبع
وأبطش، فأنت على التنكيل مقتدر
وثق بأن البلاد اليوم أجمعها
لم ترجيه من مسعاك تنتظر
ويستمر يخاطب رئيس حكومة الانقلاب، ليعنف بالذين أراقوا دماء الشعب ونكلوا به
أشد تنكيل ويقول:

فحاسب القوم عن كل الذى اجترعوا
مما أراقوا، وما أغتلوا، وما احتكروا
لأن لم يبلغ شبر من مزارعهم
ولا تزحزح مما شيدوا حجر
حتى يصل إلى أعنف نقطة وهو هدف العنف من الذين لم يعرفوا فى تعاملهم مع
الشعب سوى العنف:

فضيق الحبل وأشدد من خناقهم
فربما كان فى إرخائه ضرر
تصور الأمر معكوسة وخذ مثلاً
مما يجرونه لو أنهم نصروا
أكان للرفق ذكر فى معاجمهم
أم كان عن "حكمة" أو صحبة خبر
(نفس المصدر، ج٢: ٣١٧-٣١٦)

وتتكرر الحالة بعد ثلاثة عقود من هذا التاريخ، حيث ثوره ١٤ تموز ١٩٥٨م، وحيث
أسدل الستار على العهد الملكى وحكوماته الشطرنجية التى لعبت لعبتها بالشعب والملك.
وفى قاعة المحكمة التى تصدرها المهدوى والعقيد ماجد أمين لمحاكمة رجال العهد
الملكى، فكانت بين برهة وأخرى ترتفع صيحات الجالسين وهتافاتهم، فتراهم يلقون
الخطب والأشعار المرتجلة أرتجالاً فكانما هم فى سوق عكاظ وقد أثارته هذه الأجواء
مشاعر العنف عند الجواهري فأهدى رئيس المحكمة قصيدة عظماء اهتزت لها أركان
المحكمة والحاضرون فيها وقد عبر فيها عما يجول فى خاطرة تجاهها وقال:

عصفت بأنفاس الطغاة رياح
وتنفسست بالفرحة الأرواح

واليوم تشرق في النفوس وضاحة
جدعت عرائينا غلاظ فتية
يجتاح باسم الشعب وغداً باسمه
ويشع في حلقاتها مصباح
من يعرب غر الجباه صباح
راحت كرمة أمة تجتاح
(الجعفرى، ١٩٩٠م: ٣٧)

النفحة الجماهيرية الشعبية في شعر الجواهري

في عقود الثلاثينيات والأربعينيات وحتى الخمسينيات حيث النظام الملكي وحكومات حسب الظاهر وطنية لكنها مرتبطة، تعسف وتظلم وتعتقل والخاسر الوحيد هو أبناء الشعب، ولقد كانت ساحات الكرخ والرصافة تعج بالناس وتتحرك لمجرد إعلان الجرائد بأن هناك قصيدة للجواهري، الجواهري والقصيدة النارية، الجواهري يتحدى، فالجماهير كانت تتشوق إلى ما يقوله الجواهري ولمجرد السماع أو القراءة عبر الجرائد، فإن أبيات شهيرة من القصيدة تنتشر وتذاع، وتصبح كالأمثال السائرة في أفواه الجماهير تنتقلها طبقات المجتمع لا سيما المظلومون والمسحوقون وإن كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على الإلتصاق المباشر لشعر الجواهري مع قضايا الشعب، مع الأمور اليومية للناس، مع الأحداث التي تثير الناس. إن وظيفة الجواهري بالنسبة للجماهير تكون مضاعفة فهو فضلاً عن إشتراكه مع الجماهير في إيجاد الحدث، فإنه يرى نفسه مسؤولاً عن حفظ ذلك الحدث بقصائده وأشعاره لذلك كانت أشعاره كالماء وكالهواء يتلقاها الناس بحرارة وينشدونها حباً واحتياجاً.

فهناك أبيات أخذت شهرتها من التزام الناس بها وترديدها في كل مجال ومكان، في الشارع، المدرسة، في النوادي، المظاهرات والاعتراضات. هذا ليس فقط في العراق ومدنه بل كانت تلك الأبيات المشهورة تنتقل سريعة إلى بقية أنحاء العالم العربي وإذا ما كانت القصيدة قد ألقاها الجواهري خارج العراق فإنها تنتقل سريعاً إلى بغداد وبقية مدن العراق. عندما كتب الجواهري قصيدته المعروفة الساخرة «طرطرا» إعتراضاً على الأجواء التعسفية وحملات الاعتقالات واغلاق الصحف فعلت هذه القصيدة فعلتها واصبحت في ليلة وضحاها ترددها كافة الناس، الشباب، الكهول الفتيان وحتى الصبية. ولقد حملت هذه القصيدة أفكاراً انتقادية حادة وهجوماً قاسية على الحكومة ومن ورائها القوى الإستعمارية.

أى طرطرا تطرطرى قـدمى تـأخرى
تشيعى تسننى تهـودى تنصرى

ومن خصائص المطلع لدى *الجواهري* قوته، تصريحه، استعمال فعل الأمر، لذلك ترى كثيرة من قصائده وهو يخاطب الجماهير ويحرك فيهم الهمم باطلاق فعل الأمر وذلك لبيان جدية القضية وأهميتها والتأكيد على العلاقة القوية ما بينه وبين أبناء الشعب.

وبحكم العلاقة الوطيدة بين *الجواهري* وبقية الجماهير، فالشعبية كانت من مضامين شعر *الجواهري*، فلا يغيب عن أية قضية تحف الشعب دون أن يلتفت إليها أو يشير بها أو يدافع عنها، فلذلك أصبحت أبيات من قصائد مختلفة عناوين لمسميات تتعلق بظروف الناس مثلاً غاشية الخنوع، أطبق دجى، الكوفة، الكوفة الحمراء، دجلة الخير، أتعلم أم لا تعلم، هضبات العراق، فتى الفتیان، أرح ركابك.

فهذه كلها عناوين أخذت من عبارات المطلع أو من عمق القصيدة، فتحولت إلى لافتات وشعارات تداولها الناس وقد تطابق غير أحداثها وتستعمل في غير أماكنها، فإنها وإن كانت تشير إلى قصيدة معينة، أو حادثة خاصة، فإنها من مواضيع تعالج الأحوال العامة للناس وتدخل حياتهم ومفرداتها. ويكفى أن تنظر إلى قصيدة كان *الجواهري* قد نظمها تمجيداً للشعب الكردي ونضاله ومطلعها.

قلبي لكرديستان يهدى والفم ولقد وجود بأصغريه المعدم

وجاء في آخر بيت من القصيدة المتكونة من ستين بيتاً:

شعب دعائمه الجماجم والدم تتحطم الدنيا ولا يتحطم

(الجواهري، ١٩٨٦م: ٥٠٢)

لقد تناقل أبناء العراق هذا البيت وسار سير النار في الهشيم حتى طلاب مدارس الابتدائية كانوا يحفظونها ويرددونها، والطريف في هذا الأمر أن هذا البيت أصبح شعاراً يلقيها الكثير من الأحزاب والمنظمات السياسية وتجعله خاصاً بها بالمضمون دون الإشارة إلى صاحب هذا البيت الشعري، ولا يغرب على العراقيين من كافة شرائحهم. إن نظام البعث في العراق كان في العقد الأول من حكمته قد اتخذ من هذا البيت الشعري شعاراً لأدبياته، يلقيه في مسيراته وتجمعات الشعب في المناسبات المختلفة، بل كان يغير من بعض كلماته أو يبدله بكلمات تتوافق مع ما يريد، حتى ظن الناس أن البيت لأحد قيادي

الخرّب الدكاتوري، فمثلاً غيروا بين مدة وأخرى كلمة "شعب" ووضعوا مكانها "وطن" أو كلمة "دعائمه" ووضعوا مكانها "نشيده" ليصبح «وطن تشيده الجماجم» أو «حزب تشيده الجماجم» إشارة إلى حزب البعث.

في حال كان *الجواهري* هارباً منهم وخارجاً من العراق. أما بالنسبة إلى نهر دجلة فقد أهدى *الجواهري* لهذا النهر المعطاء لقباً وإسماً يبقى ما بقي الدهر، وهو "دجلة الخير" بقصيدته الذائعة الصيت:

حييت سفحك من بعد فحييني
حييت سفحك ضمناً ألوذ به
يا دجلة الخير، يا أم البساتين
لوذ الحمام بين الماء والطين

(الجواهري، ١٩٧٢م، ج٥: ٨١)

هذا هو الالتحام بالأرض والشعب. *فالجواهري* وإن كان مغترباً لم يكن لينسى شعبه وهمومه. لم يكن بعيداً عن واقع همومهم ومعاناتهم، وما كان يريد بدجلة إلا الأهل والأحباب، الجماهير التي كانت تنتظره على أحر من الجمر.

ليس هو القائل «شاعر لا يوجد الناس في ديوانه ليس بشاعر، نعم هو يصوغ وينمق، ولكن إلى أي مدى هناك حضور للناس في ديوانه وإلى أي مدى هو مع الناس، هذا هو السؤال» (الجواهري، ١٩٩٩م: ٥١).

وما أظن الجواب إلا في قوله:

أنا العراق لساني قلبه ودمي
فراثة، وكياني منه أشطار
(نفس المصدر، ج٤: ٢٧٤)

أو في قوله:

أنا "عروة الوردى"
وزعت جسمي في الجسوم
رمز مرؤة العرب العريب
ومهجتي بين القلوب

(نفس المصدر، ج٥: ٥٣)

يكفي أن تنظر وتتأمل في القصائد الجواهريّة والتي أنشدها عبر قرن كامل لتجد أن *الجواهري* قد سلك طريقاً شعرياً تمحور فيه على أسس عموده الوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر، والوطن عبارة عن وحدات متراففة فوق أخرى، لتبدأ من الأهل، المجتمع، الأرض بسهوله ووديانه وجباله وصحرائه، لم يتوقف *الجواهري* في حدود وطنه

بل كان يرى وطنه إمتداد الوطن أكبر وأن هموم هذا الوطن هي هموم الأمة فسعادة شعبه هي من سعادة أمته ومحنة شعبه هي محنة أمته وإذا كان الاستعمار الإنجليزي قد نهش السنين طويلة جسد العراق، فسورية ومصر والجزائر قد ابتلت وجرحت من حرب الاستعمار الفرنسي وإذا كانت الحكومات الرجعية قد تسلطت على رقاب الشعب العراقي قرابة خمسين عاماً فالأمر كذلك في بقية بقاع العالم العربي، إذن فالمصيبة للجواهري نفسها والههم واحد لا فكاك (إعتمادى، ١٣٨٧، ش: ١٠٢). فعلى المستوى الوطني كان الجواهري وطنياً غيوراً مدافع عن استقلال بلده وحرية بوجه الطامعين المستعمرين، وكيف يكون الجواهري غير ذلك وهو سليل عائلة عراقية وعربية مناضله أشتهرت بوطينتها ومواقفها الكفاحية المعروفة جيداً في النجف، وفي عموم العراق، فوالده كان من الوطنيين الأحرار الذين قاموا بالاستعمار البريطاني أما أخوه جعفر فقد قضى شهيداً وهو في ريعان الشباب دفاعاً عن الوطن وحرية وقد كتب عنه الجواهري أعظم القصائد (الجواهري، ١٩٩٩م: ٢٣٦) إذ كان الجواهري قد أنشد للثورة العراقية قصائد تحرك الهمم وتمجد الثائرين:

فبعد ذا يوم غد
وعزمكم متقد
كيف ينام الأسد
عنها العيون الرمدم

إن كان طال الأمد
أسيافكم مرهفة
هبوا فعن عرينه
ما أن أن تجلوا القذى

وعندما يغنى الجواهري لبغداد:

بعثت لك الهوى عرضاً وطولاً
أزارتك الصبابة والغليلا

خذي نفسى الصبا بغداد أنى
أبغداد اذكري كم من دموع

(الجواهري، ١٩٨٦م: ٩٧)

لقد توسع الفكر الأدبي والسياسي للجواهري في رقعة الوطنية والقومية لتأخذ أبعاداً أكثر شمولية تضرب في العمق الإنساني، فنتج لديه أدباً أممياً إنسانياً يستجيب للحدث الإنساني أينما كان ويمجد الشواخص الإنسانية بتفاصيلها ومفرداتها أحياناً وشخصيات وقضايا. فترى في شعره إماماً مطرداً لما يدور حول الأدب العربي وساحاته ولم يكن ليحصل هذا إلا لكون الجواهري يتمتع بفكر رحب وخيال نافذ والتزام بقضايا الإنسان لقد

كتب وأنشد لشخصيات عالمية وأرخ بشعره لأحداث مصيرية مرت على القرن العشرين، ونجده في عام ١٩٢٦م يصبغ مؤتمر نزع السلاح في موسكو بصبغة إنسانية ويهيج فيه روحاً تتحرق لأطفال العالم حيث هم الضحية الأكثر مأساوية قياس إلى بقية الناس. ولم ينس الجواهري إيران، حيث أقرب الأرتباط بين النجف وحوزته بل العراق وشعبه مع إيران وشعبه، وقد قال بحق شهداء إنتفاضة الشعب الإيراني على الشاه ومجىء حكومة مصدق وتأميم النفط عام ١٩٥٢م:

سالت لتعلمي ما تشاء دماؤها
وانصاع مخضوباً يركز نفسه
ضاعت بالمهجات تفرش أرضها
وهوت لترفع شأنها شهداؤها
ما بين ألوية الشعوب لواؤها
بالمكرمات النيرات سماؤها
(نفس المصدر، ج ٤: ١٢٤)

وواكب الجواهري انتصارات الجيش الروسي في الحرب العالمية الثانية فتعاطف وأيد ومجد ذلك عبر قصائد عديدة منها قصيدة «سواستبول» و«ستالينغراد» وغيرها. قال في قصيدة «ستالينغراد»:

نضت الروح وهزتها لواء
ومشت في زحمة الموت على
أقسمت بأسم عظيم كرمت
يا استالين وما أعظمها
يا تولستوى ولم تذهب سدى
وكسته واكتست منه الدماء
قدم لم تخش ميلاً والتواء
باسمه أن لا تهين العظماء
في التهجى أحرفاً تأبى الهجاء
ثورة الفكر ولا طارت هباء
(نفس المصدر، ج ٣: ٥١)

نتيجة البحث

يعد هذا الاستعراض بجوانب الموضوع يمكننا أن نشير إلى بيان أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة وهي كالآتي:

أولاً: العنف الثوري في شعر الجواهري يعود إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التي تمتاز بها شخصية الجواهري.

ثانياً: إن العنف الثوري في شعر الجواهري قد جاء بمثابة رد فعلٍ طبيعي لواقعٍ مُر.

ثانياً: إن الجواهري يرى نفسه مسؤولاً عن حفظ الحدث بقصائده وأشعاره وكان الناس يتلقون أشعاره بحرارة وينشدونها حباً.

رابعاً: إن النفحة الشعبية كانت من مضامين شعر الجواهري.

خامساً: إن الجواهري قد سلك طريقاً شعرياً تمحور فيه على أسس عمود الوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر.

سادساً: كان الجواهري يدعو الجميع إلى التحدى والعنف مقابل الضعف.

سابعاً: كان الجواهري يخاطب رئيس حكومة الانقلاب، ليعنف بالذين أراقوا دماء الشعب واكلوا به أشد تنكيل.

ثامناً: إن الجواهري يتمتع بفكرٍ رحب وخيالٍ نافذ والتزام بقضايا الانسان فتري فى شعره الماماً مطرداً لما يدور حول الأدب العربى.

المصادر والمراجع

- اعتمادى، م. ١٣٨٧ش، **الجواهري، حياته، اسلوبه الشعري وخلفيته الثقافية**، ايلام: جامعة آزاد الاسلامية.
- الجبورى، ع. ١٩٩٣م، **الجواهري، نظرات فى شعره وحياته**، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجعفرى، م ح. ١٩٩٠م، **محكمة المهداوى**، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- الجواهري، م م. ١٩٧٩م، **ديوان الجواهري**، دمشق: مطبعة دمشق.
- الجواهري، م م. ١٩٨٦م، **الجواهري فى العيون من أشعاره**، دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر.
- الجواهري، م م. ١٩٩٨م، **ذكرياتى**، ج ٢، الطبعة الأولى، دمشق: دار الرافدين.
- العلوى، ه. ١٩٦٩م، **محمد مهدي الجواهري**، بغداد: دراسات نقدية.
- الفتلاوى، ك ع. ١٩٩٩م، **المنتخب من أعلام الفكر والأدب**، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة المواهب.

Bibliography

- Etemadi, M. 2008 A.D; Jahheri, His Life and Poetry Style and His Ethics and Culture, Ilam, Islamic Azad University
- Al-Jabouri, A. 1993; Al-Jawahiri and Look at His Poetry and Life, Beirut Scientific Library
- Jafari, M. H. 1990; Baghdad Mahdavi Court, House of Culture
- Al-Jawahiri, M.M. 1979; Javaheri's Divan, Damascus, Damascus Publication
- Al-Jawahiri, M.M., 1986; M. Jahheri in His Poems Springs, Damascus Darul-Tallas, For Research and Publication
- Al-Jawahiri, M.M. 1998; My memories, Vol.2, Damascus, Dar al-ravazin, 1st edition
- Alavi, H. 1969; Mohammad Mehdi Javaheri and Study of the Revolution in Baghdad
- Al-Fatlawi, K. A. 1999, Selected by the Elders of Science and Literature, Beirut, Al-Mowbat Institute, 1st Edition